غوتفريد ويلهلم ليبنتز

ولد هذا الفيلسوف فى أول يوليو سنة ١٦٤٦ فى « ليبزغ » أى قبل موت الفيلسوف « ديكارت » بأربع سنوات، ومات أبوه لما كان له من العمر ست سنوات، وكان أستاذ الفلسفة الادبية فى جامعة تلك المدينة وكاتبها . قال عنه « فونتانل » — إنه لم يظهر فى حداثته ميلا للعلوم والدرس ولما كان أبوه قد ترك له مكتبة محتوية على القليل من الكتب فانه ابتدأ — بعد أن درس اللاتينية واليونانية — يحفظ الشعر ويطالع خطب الخطباء مع درسه التاريخ والفقه والفلسفة والرياضيات واللاهوت. إلا أنه كان يشعر بحاجة للمعاضدة من الغير، فذهب يفتش على الحكماء فى بلدته كيما يساعدونه على تفهم العلوم وقد اضطر إلى ترك « لينبرغ » لهذا السبب — وفى سنة ١٦٦١ تابع درس منهاج تعليم الجامعة ودرس الفلسفة القديمة على الاستاذ « جاكوب توماسيوس » واطلع على فلسفة أريسطوطاليس وقال عن نفسه — فيما بعد — انى عندما كنت ادرس المبادىء الاولية فى العلوم كنت أتساءل: مم تتركب هذه العلوم وكيف تتحكم فى العقل والفكر، وكنت الاحظ أنها على شىء من الاهمية ، قد قرأت فلسفة القرون الوسطى بتمعن حسبما أمرنى معلمى، وحفظت ماترتكز عليه من الآراء الغريبة التى تظهر عويصة فى مبادىء الذاتية من جهة تركيب المعلولات أم من جهة الله . ولكن كنت اشك فيما القن ولا اقبل من الآراء إلا مايطمئن اليه فكرى ويزيد على هذا بقوله إنه بعد تركه المدرسة الابتدائية اطلع على آراء الفلاسفة الذين عاصروه، ويذكر أنه عندما كان فى الخامسة عشر من عمره كان يتنزه وحده بالقرب من « لينبرغ » فى غابة صغيرة تدعى « روزنتال » ، وكان يقضى الوقت الطويل فى تأمل عميق لادراك العلة الاولية الجوهرية. وكانت الميكانيكيات أول ماالتزعى انتباهه . ولهذا ابتدأ بدرس الرياضيات العالية وتفهم أسرارها — وقوله هذا يطابق ماذهب اليه الفيلسوف الفرنسى « أوغست كونت » فى الفلسفة اليقينية من حيث أن المرء ينتبه أولا إلى الطبيعة من ناحية رياضية صرفة. فظهر السرعة وناموس الأثقال والابعاد وماشا كلها تسترعى الاهتمام بدأة، ومنها يتدرج الانسان الى تفهم بقية العلوم ، وفى « بينا » تابع درس منهاج الرياضى « ارهاردفايجل » ولكنه

لم يتعمق فيه بل اكتفى بالتحليل الابتدائي وعندما كبر قال عن نفسه: «لو أني كنت «كباسكال» صرفت أيام شبابي في «باريس» فلربما كنت وجدت سهولة أكثر في حفظ العلوم».

في سنة ١٦٧٤ كتب أن «باكون» و«غاسندي» أول من أثرا فيه، فأسلوبهما الاعتيادي الشائع كان يطابق نزعته تمام المطابقة. وقال - مع إني كنت قد اطلعت على آراء «غاليليه» و«ديكارت» إلا أني لم أكن يومذاك مهندساً فلم أهتم بما ذهبا اليه - وكان يثبت وجود الفراغ والجواهر الفردة التي نعرفها بداهة اليوم، ولكنها كانت في عصره من أصعب المسائل. وفي سنة ١٦٦٦ أي عندما كان دون العشرين من عمره ألف كتابا قيما في الفنون، ورفض أن يكون واعظا حبا في متابعة درسه العميق مفضلا الابتعاد عن رجال السياسة والعلم، قال «فونتانل» - عندما أحرز «ليبنز» شهادة الدكتوراه في الحقوق وذهب الى «نيرمبورج» ليواجه العلماء علم أن في تلك المدينة جمعية قوية من الشبان يشتغلون في الكيمياء يفتشون على حجر الفلاسفة وتدعى بالصليب الوردي نسبة لاسم مؤسسها «Rosenkrany» سنة ١٦٧٨ فأحب أن يغتنم الفرصة ويصير كيمياويا باكتشافه شيئاً من عالم الغيب، فاشترى كتبا في الكيمياء وبعد تعب شديد كتب تحريرا منهما الى رئيس تلك الجمعية يطلب منه أن ينتبه جيدا الى البراهين التي يقدمها والتي تدل على سعة معارفه، إلا أن هذا عندما تسلم التحرير أرسل في طلبه، ولما حضر ذهب معه إلى مقابلة وكيل منتخب مقاطعة «منز» وهذا طلب منه أن يذهب الى «فرنكفورت» فذهب وهناك تعرف الى العلماء والادباء ومن جملتهم القس «سبنر» الذي كان قد أسس الفرقة المعروفة بالصلاح الكهنوتي «Piétisme» وحبذ تعاليمها فيما بعد الفيلسوف «كانت» ونشر فيها كتابا في الحقوق أهداه الى المنتخب، وبحث فيه فلسفة الحقوق وقواعد الحقوق والمراسلات الحقوقية. فلما اطلع المنتخب على هذا الكتاب دعاه الى مجلسه وكلفه أن يعاون الاستاذ «لاسر» في بحثه التشريعي، وفي سنة ١٦٧٠ عينه وكيلا في المجلس الأعلى في دائرته.

وقد نشر في تلك السنة كتابا قيما للمصلح الايطالي «ماريوس نيزوليوس» الذي عاش في القرن السادس عشر عنوانه «ضد البرابرة - بحث فيه عادات البرابرة وافتهم»، وفي سنة ١٦٧١ ألف كتابا سياسيا بحث فيه مسألة اتفاقية السلام العام بين الدول على هذه الشروط:

١ ــ الوحدة الجرمانية

٢ ــ اسوج وبولونيا عندهما للاستعمار — سيبريا

٣ ــ انكلترا والدانمارك عندها للاستعمار — أميركا الشمالية

٤ ــ اسبانيا عندها للاستعمار — أميركا الجنوبية

٥ ــ هولندة « « — الهند الشرقية

٦ ــ فرنسا « « — افريقيا التي تقابل مصر

الا انه قد عدل هذه الشروط ــ بعد أن دخل لويس الرابع عشر اللورين فقال : اذا كان ملك فرنسا يحتل الاستانة ومصر وكل أجزاء السلطنة العثمانية فيكون قد قضى ــ بأمر الله ــ على الاباحية المنتشرة فيها ــ ولما جاء الى « باريس » عام ١٦٧٢ قابل لويس الرابع عشر وبين له عظم الفوائد من احتلاله مصر وقدم له كتاباً كان قد ألفه بهذا الخصوص ظهر فيه أنه كان مطلعا تمام الاطلاع على مجرى الاحوال فى مصر، يعرف قوى الجيش فيها وماليتها وطرقها الداخلية ومواقع حصونها وعناصر أهلها بالنسبة إلى العنصر التركى. ومن جملة آرائه أن هولندا يهمها ــ فى الدرجة الاولى ــ أن تكون مواصلاتها مع الهند عن طريق مصر، إلا أن كتابه لم يؤثر التأثير المطلوب، لأن الحرب كانت قد أعلنت بين فرنسا وهولندا

وقد عرف فى « باريس » « أرنولد » أحد اتباع « ديكارت » و « هويجنس » الرياضى الهولندى الذائع الصيت و « تشيرنهوس » الرياضى الالمانى وصديق « سبينوزا » وفى ذهابه الى « لوندره » تعرف إلى هؤلاء الانجليز الذين عاصروه

عندما أتى إلى « باريس » لم يكن بارعاً فى الهندسة . ولكن احتكاكه بعلمائها جعله يكتشف بعد أربع سنوات أسلوب الحساب الذى اكتشفه بذات الوقت العلامة « نيوتن » . ففى سنة ١٦٨٤ نشر كتاباً تحت عنوان ــ القواعد الجديدة فى الاكثرية والاقلية ــ بين فيه طريقة الحساب الذى اكتشفه ، وفى سنة ١٦٨٧ نشر « نيوتن » كتاباً عنوانه ــ مبادىء الرياضيات للفلسفة العمومية ــ أوضح فيه نفس ما أوضحه « ليبنز » . قال « فونتانل » إن قوة الفكر المتعادلة هى التى دعت الواحد أن يكتشف ما اكتشفه الآخر بدون أن يكونا على اتفاق فى البحث. إذ أن ما أسماه « نيوتن » « Fluxion » دعاه

« ليبنز » « Difference » . وكانت القاعدة التي قال عنها ليبنز انها صغيرة لا نهائية مطابقة إلى ماذهب اليه « نيوتن » ، لهذا عم مذهب « ليبنز » العالم عدا انكلترا لانها كانت قد اكتفت برجلها الفذ وعالمها الاوحد

ان مسألة ذاتية الشيء لم تكن ذات أهمية إلا سنة ١٦٩٩ حيث بحثها « فوتيو » تلميذ « نيوتن » وفي سنة ١٧١١ أثبتها « كايل » تحت اسم آخر وبشكل جديد ، فحساب التنزيل الذي قال به « نيوتن » والذي يعد كأساس لهذه المسألة كان قد عرضه « ليبنز » في الجمعية الملوكية في لندن ، حيث كانت هذه الجمعية حكما لفحص تعاليم الرياضيين القدماء ، وعما إذا كانت تطابق الحساب الجديد ، وقد تبين لها أن « ليبنز » لم يكن مطلعا على ماذهب اليه « نيوتن » كما يتضح من مراجعة ملف الأوراق المحفوظ فيها منذ سنة ١٧١٢ ، وليس هذا فقط بل أن أسبقية « ليبنز » في اعلان قاعدة الحساب المختلف لم يشك بها أحد من أعاظم الرياضيين مثل « أولر » و « لاجرانج » و « لابلاس » و « بواسون » و « بيو » وغيرهم . وقد كتب في سنة ١٧١٦ أي قبيل وفاته كتاباً تحت عنوان — تاريخ وأصل الحساب المختلف — قال فيه : ان هذه القاعدة لم تعرف في العالم إلا عند ماخطها بيده على أوراقه الخاصة

والذي يطلع على هذه القاعدة يعرف أن عليها تأسست الاعمال الرياضية العالية التي تظهر متعادلة باستخدام الحروف الهجائية كواسطة وهمية . وقد اكتشف عدا هذه القاعدة قاعدة حساب المجسم المحدود بشكل أفقي وتظهر هكذا :

١	١	١	١	١	١
١	٢	٣	٤	٥	٦
١	٣	٦	١٠	١٥	٢١
١	٤	١٠	٢٠	٣٥	٥٦
١	٥	١٥	٣٥	٧٠	١٢٦ الخ

أي أن كل عدد في الخط يجمع مع ما يقابل الذي بعده في الخط الاسبق ، وعندما ذهب الى انجلترا سنة ١٦٧٣ وشاهد الرياضي « بل » ، وحدثه عن رأيه في اختلاف الاعداد ، عرف منه أن هذا الرأي ليس جديداً لان « مركاتور » كان قد أعلنه منذ مدة

سبقت ذلك التاريخ. فابتدأ بدرس « مركاثور » ولم يكن قد تعرف بعد الى « كولن » و أولند » بورج الذى كان يراسلانه مع « نيوتن » من حين لآخر ورجع من انكلترا إلى فرنسا وحضر مجلس العلامة « هويجنس » ومن ذلك الحين ابتدأ يدرس « ديكارت » وبقية العلماء الذين مزجوا العلوم بالفلسفة وخرجوا على بيئتهم « تقاليدها ولهذا كتب فيما بعد :انى احترم « ديكارت » كل الاحترام لان فلسفته تؤثر فى الفكر تأثيرا عميقا لا يمحى مدى العمر — وفى ذلك الحين بلغه موت منتخب « منز » ووكيله، فقطعت علاقته بمجلس ادارة المنتخب إلا أن الدوق «جان فريدريك » عينه وكيلا للمكتبة العمومية فى « هانوفر » فقبل ، وقبل أن يذهب الى محل وظيفته . رجع إلى انجلترا ومكث فيها أسبوعا شاهد فى اثنائه « كونى » صديق « نيوتن » وذهب من هناك الى هولندا حيث زار « سبينوزا » الفيلسوف الكبير وقال عنه — قد حادثته مرارا عديدة فوجدت فيه شخصية خارقة للعادة ،أما من جهة المبادى.التى يدين بها أو من جهة العلوم التى يحيط بها فهو فى أكثر آرائه متفق معى — وقد مات « سبينوزا » بعد زيارته له ببضعة أشهر ،أى فى ٢١ فبراير سنة ١٦٧٧ وله من العمر ٤٤ عاما .

و بعد أن وصل إلى « هانوفر » كتب عدة كتب فى العلوم والتاريخ،منها ما يختص بأصل سلالة أمراء « برنسويك » الذين عطفوا عليه كل العطف وأكرموا مثواه ،وفى سنة ١٦٨٦ نشر كتابه الكبير — قواعد اللاهوت — الذى رمى فيه إلى اتحاد الكاثوليك و البروتستانت ،وقد أظهر فيه براعة تستحق الاعجاب إذ أنه تكلم عن كل الفرق و الاديان و بين ما يجب على المرء أن يعمل تجاه هذه كلها فرتب صلاة خصوصية نشرها وهذه ترجمتها :

أيها الآله الأحد الكائن فى كل مكان و الذى لا يشارك فى ملكه ، أنا مخلوقك البائس التجى. اليك وأومن بك ، أحبك أكثر من الكل وأرجوك مساعدتي،أشكرك على عطاياك و أهبك نفسى :ساعدنى على خطاياى وأعطنى كما تعطى الآخرين ماتسمح به ارادتك وكما استحق من التجارب : آمين »

فلما اطلع « ارنولد » عليها كتب اليه قائلا — ان هذه الصلاة

لا تفيد شيئا لأنه لا يوجد فيها إسم المسيح ، فأجابه — : ان الصلاة مذكورة فى العهد القديم وفى أخبار الرسل وبقية أجزاء الكتاب المقدس — فلم يقتنع « أرنولد » بهذا الجواب بل أشاع أن « لينز » أراد بها تشويش الأفكار لاغير ، وفى هذه الاثناء حدث أن الدوق « جان فريدريك » اعتنق المذهب الكاثوليكى فأثار باعتناقه هذا المذهب جدالا قوياً بين البروتستانت والكاثوليك فما كان من « لينز » إلا أن انزوى فى مكتبته وأخذ يطالع المجادلات الدينية التى ثارت بين « لوثر » و « ابراسيموس » وغيرهما وبعد أن عرف أخطاء الجميع كتب كتباً فى اللاهوت كانت فاضحة لسخافات الجهتين فزادت نيران الجدال اضطراماً حتى أعلن أن غيبياته ليست سوى رياضيات لا ترتكز إلا على المعقولات ، وأن الرياضى أسهل عليه كثيراً أن يصير فيلسوفاً من أن يصبح فيلسوفاً رياضياً . وأن الفلسفة واللاهوت من أصل واحد وقد يتفقان فى القصد اذا بحثا بحثاً مدققاً وما مظهر التعاليم السكولاستيكية — القديمة — سوى مظهر ممسوخ من الفلسفة واللاهوت ، فالله والنفس موجودان ولكن عقول الناس قاصرة عن ادراكهما ادراكا تاماً ، فالديانة يجب أن ترتكز على العقل وإلا كانت فاسدة ، وذهب فى هذا البحث مذهباً طبع بطابعه فهو لم يرض الكاثوليك ولا البروتستانت ، وإنما أرضى نزعته وعبر عن آرائه بصراحة تامة وقال : ان البروتستانت ينظرون إلى اخطاء الكاثوليك وحدها والكاثوليك إلى اخطاء البروتستانت كذلك ، وأنا أنظر الى اخطاء الاثنين وصوابهما وأستنتج منها حقيقة لا تقبل الشك وهى — عند ما يصير البروتستانت كالكاثوليك يصبح الكاثوليك بروتستانت . لأن التحوير لابد من أن يلحق أحدهما ، وبهذا يمكن النزاع — وقد راسل بهذا الخصوص « بوسيه » فى سنة ١٦٨٧ إنما لم يتفق وإياه على رأى من الآراء وبعد موت الدوق « جان فريدريك » جرب اليسوعيون أن يستميلوا الى مذهبهم منتخبة « براندبورج » وكانوا يأملون أن « لينز » يعضدهم فى تشتيت البروتستانت من ألمانيا الشمالية ، فلم ينجحوا لأنه لم يكن من رأيهم .

وفى السنين الأخيرة التى أمضاها فى « هانوفر » — وتبلغ الاربعين — تتبع مجرى الأحوال السياسية فى أوروبا ونشر فى سنة ١٦٨٤ كتابا سياسيا قيما طعن فيه فى لويس الرابع عشر ، وفى سنة ١٧٠١ أعلن برلمان انكلترا أنه بعد موت الملكة

حنة ـ وكانت أرملة ـ يصبح التاج البريطانى من حقوق منتخبة «هانوفر» صوفى ، أصغر بنات جاك الأول، وفى حين مخالفتها بعض الشرائع الانكليزية يسقط حقها منه ويصير محصورا فى أولادها وكانت منتخبة «هانوفر» أخت «البزابت» أميرة بوهيميا المشهورة بتلمذتها على «ديكارت» وصديقة «لبنز» ولما كانت ترغب أن يكون أخوها جاك الكاثوليكى ملكا على الانكليز أرسلت إلى أختها ترجوها أن يكون «ليبنز» صديقها الواسطة بينها وبين سياسيى انكلترا. فاهتم «ليبنز» بالأمر وراسل رجال السياسة من الانكليز غير أنه لم يفلح فيما ذهب اليه ، وكانت ابنة منتخبة «هانوفر» واسمها «صوفى شارلوت» قد تزوجت فى سنة ١٦٨٩ منتخب براند بورج «فريدريك الثالث الذى صار فيما بعد ملكا على البروسيين ولقب فريدريك الأول» تعطف كل العطف عليه، لأنها تربت على يده ومالت إلى المبادىء التى يعتنقها، ولما أعلن رأيه فى الاختيار منذ الأزل وحرية الانسان ارسلت اليه تطلب منه أن يوضح لها بحثه فى هاتين النقطتين فأجابها جوابا لم يكن مقنعا حتى أن ابنها فريدريك الثانى لما كان على فراش الموت قال لاحدى نساء البلاط ـــ لا تبكى على اذا مت لأنى أريد أن أتحقق بنفسى ما عجز «ليبنز» عن إظهاره لى من جهة الفضاء واللا نهاية والعلة الأولى واللاشىء .

***

وكان يأمل أن يؤسس وحدة فكرية جرمانية ترقى اللغة الألمانية وتنشر العلوم المجردة وتساعد على نمو الصناعة والتجارة وانشأ لهذه الفكرة الجمعيات العلمية فى أنحاء المانيا ومنها جمعية «درسدن» وجمعية «فينا» إلا أنه عدل عن رأيه هذا أخيراً وقال بضرورة تأليف وحدة فكرية أوروبية تعم الشعوب المسيحية كلها .

ومع أن فلسفته لم تبلغ الشأو الذى بلغته فلسفة نده «نيوتن» فانها كانت ذات أثر فعال فى رقى الفكر الأوربى فى القرن السابع عشر ونستطيع أن نقول إن «ليبنز» من أولئك الأفراد القلائل الذين تبخل بهم الطبيعة فيظهرون فى فترات مختلفة يقلبون فيها نظام العلوم والفلسفة ويقضون على الأوهام السائدة على العقول